غزوة الرَّجيع

جاء في سيرة ابن هشام[1] أنها في سنة ثلاث للهجرة، وذكرها أبو جعفر الطبري في تاريخه في أول أحداث ستة أربع من الهجرة، والله أعلم.

وقد روى أحداثها محمد بن إسحاق، عن عاصم بن عمر بن قتادة، قال: [قدم على رسول الله ﷺ بعد أُحُد رهط من عضل والقارة[2] فقالوا له: يا رسول الله! إن فينا إسلاماً، فابعث معنا نفراً من أصحابك يفقهوننا في الدين، ويقرئوننا القرآن، ويعلموننا شرائع الإسلام، فبعث رسول الله ﷺ معهم نفراً ستة من أصحابه: «مرثد بن أبي مرثد الغَنَويِّ»، حليف «حمزة بن عبد المطلب» و«خالد بن البُكَيْر» حليف بني عدي بن كعب، و«عاصم بن ثابت بن أبي الأقلح» أخو بني عمرو بن عوف، و«خُبَيْبَ بن عديٍّ» أخو بن حَجْجَبى بن كلفة بن عمرو بن عوف، و«زيدَ بن الدَّثِنَة» أخو بني بياضة بن عامر، و«عبد الله بن طارق» حليف لبني ظَفَر من بَلِيٍّ.

وأَمرَّ رسول الله ﷺ على القوم «مرثد بن أبي مرثد» فخرجوا مع القوم، حتى إذا كانوا على «الرجيع» ـ ماء لهُذَيْل بناحية من الحجاز من صدور الهَدْأة ـ غدروا بهم، فاستصرخوا عليهم هُذَيْلاً، فلم يُرَع القوم وهم في رحالهم إلا بالرجال في أيديهم السيوف، قد غَشُوهم، فأخذوا أسيافهم ليقاتلوا القوم، فقالوا لهم: إنا والله! ما نريد قتلكم، ولكنا نريد بكم شيئاً

---

(١) سيرة ابن هشام (٣/١٨٧). تاريخ الطبري (٢/٥٣٨).

(٢) قال ابن هشام: عضل والقارة من الهَوْن بن خزيمة بن مدركة. والهون بفتح الهاء وضمها.

من أهل مكة، ولكم عهد الله وميثاقه ألاَّ نقتلكم.

فأما «مرثد» و«خالد بن البُكَيْر» و«عاصم بن ثابت بن أبي الأقلح» فقالوا: والله! لا نقبل من مشرك عهداً، ولا عقداً أبداً، فقاتلوهم حتى قتلوهم جميعاً. وأما «زيد بن الدَّثِنةِ» و«خُبَيْب بن عدي» و«عبد الله بن طارق» فلانوا ورقُّوا ورغبوا في الحياة، فاعطوا بأيديهم فأسروهم، ثم خرجوا بهم إلى مكة ليبيعوهم بها، حتى إذا كانوا بالظهران، انتزع «عبد الله بن طارق» يده من القِران[1]، ثم أخذ سيفه، واستأخر عنه القوم، فرموه بالحجارة حتى قتلوه، فقبره بالظهران.

وأما «خُبَيْب بن عدي» و«زيد بن الدَّثِنَة» فقدموا بهما مكة، فباعوهما، فابتاع «خبيباً» حُجَيْر بن أبي إهاب التميمي حليف بني نوفل، لعقبة بن الحارث بن عامر بن نوفل ـ وكان حُجَير أخا الحارث بن عامر لأمه ـ ليقتله بأبيه، وأما «زيد بن الدَّثِنَة» فابتاعه «صفوان بن أمية» ليقتله بأبيه «أمية بن خلف». وقد كانت هُذَيْل حين قتل «عاصم بن ثابت» قد أرادوا رأسه ليبيعوه من «سلافة بنت سعد بن شُهَيْد»، وكانت قد نذرت حين أصاب ابنها يوم أُحُد: لئن قدرت على رأس «عاصم» لتشربن في قَحِفه الخمر، فمنعته الدَّبْر[2].

فلما حالت بينهم وبينه، قالوا: دعوه حتى يمسي فتذهب عنه، فنأخذه، فبعث الله الوادي، فاحتمل (عاصماً) فذهب به، وكان «عاصم» قد أعطى الله عهداً ألاَّ يمسَّه مشرك أبداً، ولا يمسَّ مشركاً أبداً، تَنَجُّساً منه.

فكان «عمر بن الخطاب» يقول حين بلغه، أن الدَّبْر منعته: عجباً لحفظ الله العبد المؤمن! كان «عاصم» نذر ألاَّ يمسَّه مشرك، ولا يمسَّ مشركاً أبداً في حياته، فمنعه الله بعد وفاته كما امتنع منه في حياته].

---

(١) القِران: الحبل يربط به الأسير.

(٢) الدَّبْر: الزنابير والنحل.

وفي حديث أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ بعث عشرة رهط، وأَمَّر عليهم «عاصم بن ثابت» فخرجوا حتى إذا كانوا بالهَدْأة ذكروا لحي من هِذَيْل، يقال لهم: بنو لِحْيان، فبعثوا إليهم مائة رجل رامياً، فوجدوا مأكلهم حيث أكلوا التمر، فقالوا: هذه نوى يثرب، ثم اتَّبعوا آثارهم، حتى إذا أحس بهم «عاصم» وأصحابه التجأوا إلى جبل، فأحاط بهم الآخرون، فاستنزلوهم وأعطوهم العهد، فقال «عاصم»: والله! لا أنزل على عهد كافر، اللهم أخبر نبيك عَنَّا، ونزل إليهم «ابن الدَّثِنَة» البياضي، و«خُبَيْب» ورجل آخر، فأطلق القوم أوتار قِسِيِّهم، ثم أوثقوهم، فجرحوا رجلاً من الثلاثة، فقال: هذا والله! أول الغدر، والله! لا أَتَّبعكم، فضربوه فقتلوه، وانطلقوا بخُبَيْب وابن الدَّثِنَة إلى مكة، فدفعوا «خبيباً» إلى بني الحارث بن عامر بن نوفل بن عبد مناف، وكان «خُبَيْب» هو الذي قتل الحارث ببدر فبينما «خُبَيْب» عند بنات الحارث، إذ استعار من إحدى بنات الحارث موسى يَسْتَحِدُّ بها للقتل، فما راع المرأة ـ ولها صبي يَدْرُج ـ إلا بخُبَيْب قد أجلس الصبي على فخذه، والموسى في يده، فصاحت المرأة، فقال «خُبَيْب»: أتَخشين أن أقتله؟ إن الغدر ليس من شأننا، قال: فقالت المرأة بعد: ما رأيت أسيراً قط خيراً من «خُبَيْب»، لقد رأيته وما بمكة من ثمرة، وإن في يده لَقِطْفاً من عنب يأكله، إن كان إلا رزقاً رزقه الله «خُبَيْباً».

وبعث حي من قريش إلى «عاصم» ليؤتوا من لحمه بشيء، وقد كان لعاصم فيهم آثار بأُحُد، فبعث الله عليه دَبْراً، فحمت لحمه، فلم يستطيعوا أن يأخذوا من لحمه شيئاً، فلما خرجوا بخُبيب من الحرم ليقتلوه قال: ذروني أُصَلِّ ركعتين، فتركوه، فصلى سجدتين، فجرت سنة لمن قُتل صبراً أن يصلي ركعتين، ثم قال «خبيب»: لولا أن يقولوا: جزع لزدت وما أبالي:

فوالله ما أرجو إذا متُّ مسلماً ... على أيِّ شِقٍّ كان لله مصرعي

ثم قال:

وذلك في ذات الإلٰه وإن يشأ ... يبارك على أوصال شلو مُمزَّعِ

اللَّهم! أحصهم عدداً، وخذهم بَدَداً[١].

ثم خرج به «أبو سروعة بن الحارث بن عامر بن نوفل بن عبد مناف» فضربه فقتله.

قال ابن هشام: أقام «خُبَيْب» في أيديهم حتى انقضت الأشهر الحرم، ثم قتلوه. وفي حديث كريب، قال: حدثنا جعفر بن عون، عن إبراهيم بن إسماعيل، قال: وأخبرني جعفر بن عمرو بن أمية، عن أبيه، عن جده: أن رسول الله ﷺ بعثه وحده عَيْناً[٢] إلى قريش، قال: فجئتُ إلى خشبة «خُبَيْب» وأنا أتخوف العيون، فرقيت فيها، فحللت «خُبَيْباً» فوقع إلى الأرض، فانتبذت[٣] غير بعيد، ثم التفت، فلم أر لخُبَيْبٍ رِمَّة، فكأنما الأرض ابتلعته، فلم تذكر لخُبَيْب رِمَّة حتى الساعة)، وقد أطلق عليه لقب: بليع الأرض.

وعن ابن هشام[٤]: قال ابن إسحاق، قال عاصم: ثم خرجوا بخبيب، حتى إذا جاءوا به إلى التنعيم ليصلبوه قال لهم: إن رأيتم أن تدعوني حتى أركع ركعتين، فافعلوا! قالوا: دونك فاركع، فركع ركعتين أتمهما وأحسنهما، ثم أقبل على القوم فقال: أما والله! لولا أن تظنوا أني إنما طَوَّلت جزعاً من القتل، لاستكثرت من الصلاة. قال: فكان «خُبَيْب بن عدي» أول من سن هاتين الركعتين عند القتل للمسلمين، قال: ثم رفعوه على خشبة، فلما أوثقوه، قال: اللَّهم! إنا قد بلَّغنا رسالة رسولك، فبلِّغه الغداة ما يصنع بنا، ثم قال: اللَّهم! أحصهم عدداً، واقتلهم بَدَدًا، ولا تغادر منهم أحداً، ثم قتلوه رحمه الله.

فكان «معاوية بن أبي سفيان» يقول: حضرتُه يومئذٍ فيمن حضره مع

(١) بَدَدًا: أي مفرقين في القتل واحداً واحداً، من التبديد.
(٢) العَيْن: من يتحسس الأخبار.
(٣) انتبذت: تنحيت.
(٤) سيرة ابن هشام (٣/١٩٢).

«أبي سفيان» فلقد رأيته يلقيني إلى الأرض فَرَقاً من دعوة «خُبَيْب»، وكانوا يقولون: إن الرجل إذا دعي عليه، فاضطجع لجنبه، زالت عنه.

قال ابن إسحاق: حدثني يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزبير، عن أبيه عباد، عن عقبة بن الحارث، قال: سمعته يقول: ما أنا والله! قتلت «خُبَيْباً»، لأني كنت أصغر من ذلك، ولكن أبا مَيْسَرة، أخا بني عبد الدار، أخذ الحربة فجعلها في يدي، ثم أخذ بيدي وبالحربة، ثم طعنه بها حتى قتله.

وقال ابن إسحاق: وحدثني بعض أصحابنا، قال: كان «عمر بن الخطاب» ﷺ، استعمل سعيد بن عامر بن حِذْيم الجمحي على بعض الشام، فكانت تصيبه غشية، وهو بين ظَهْرَي القوم، فذكر ذلك لعمر بن الخطاب، وقيل: إن الرجل مصاب، فسأله «عمر» في قَدْمَةٍ قَدِمها عليه، فقال: يا سعيد! ما هذا الذي يصيبك؟ فقال: والله! يا أمير المؤمنين! مالي من بأس، ولكني كنت فيمن حضر «خُبَيْبَ بن عدي» حين قتل، وسمعت دعوته، فوالله! ما خطرت على قلبي وأنا في مجلس قط إلا غُشِيَ عليَّ، فزادته عند «عمر» خيراً.

وأما «زيد بن الدَّثِنَة» فإن «صفوان بن أمية» بعث به مع مولى له يقال له: «نِسْطَاسُ» إلى «التنعيم» وأخرجه من الحرم ليقتله، واجتمع إليه رهط من قريش، فيهم «أبو سفيان بن حرب»، فقال له «أبو سفيان» حين قُدِّم ليقتل: أُنْشُدُك الله يا زيد! أتحب أن «محمداً» عندنا الآن مكانك نضرب عنقه، وأنك في أهلك؟

قال: والله! ما أحب أن «محمداً» الآن في مكانه الذي هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه، وأنا جالس في أهلي، فقال أبو سفيان: ما رأيت في الناس أحداً يحب أحداً كحب أصحاب «محمد» محمداً، ثم قتله «نِسْطاس».

وبكى «حسان بن ثابت» أصحاب الرجيع عامَّةً، و«خُبَيْباً» خاصَّةً، في قصائد عديدة لا يتسع المقام لذكرها جميعاً، منها هذه الأبيات[1]:

(١) الأبيات في سيرة ابن هشام: (٣/١٩٧).

ما بال عينك لا ترقا مدامعها ... سَحًّا على الصدر مثل اللؤلؤ القلِقِ
على خُبَيْبٍ فتى الفتيان قد علموا ... لا فَشِلٍ[1] حين تلقاه ولا نَزِق
فاذهب خبيبُ جزاك الله طيبةً ... وجنة الخلد عند الحور في الرُّفُق
ماذا تقولون إن قال النبي لكم ... حين الملائكة الأبرار في الأفق
فيما قتلتم شهيد الله في رجلٍ ... طاغ قَدَ أوعث[2] في البلدان الرُّفق

وهجا «حسان» هُذَيْلاً لأنهم لم ينجدوا «خبيباً» وأصحابه حين استصرخوهم في عدد من القصائد منها هذه الأبيات[3]:

إن سَرَّك الغدرُ صِرْفاً لا مزاج له ... فأْتِ الرجيع فَسَلْ عن دار لِحيان
قومٌ تواصوا بأكل الجار بينهُمُ ... فالكلب والقرد والإنسان مِثلانِ
لو ينطق التَّيْس يوماً قام يخطُبهم ... وكان ذا شرف فيهم وذا شَانِ

وقال «حسان» في هجائهم أيضاً[4]:

فلا والله ما تدري هذيلٌ ... أصافِ ماء زمزم أم مَشوبُ؟
ولا لهمُ إذا اعتمروا وحجُّوا ... من الحِجْرَيْن والمسعى نصيبُ
ولكن الرجيع لهم مَحَلٌّ ... به اللؤم المبيَّن والعيوبُ
كأنهم لدى الكنَّات أصلاً ... تيوسٌ بالحجاز لها نَبِيبُ
هُمُ غرُّوا بذمتهم خُبَيْباً ... فبئس العهدُ عهدهم الكذوبُ

وهكذا باءت (هذيل) بالخزي والعار، وركب أهلها الشَّنار! والعمل الصالح يرفعه الله، والعمل السيِّء يفضي بأهله إلى أسفل سافلين!.

---

(١) الفَشِل: الجبان الضعيف.
(٢) أوعث: أكثر الفساد، وسَهَّلَ الهمزة للوزن.
(٣) الأبيات في السيرة (٣/١٩٩).
(٤) الأبيات في السيرة (٣/٢٠٢).

بعثة عمرو بن أمية الضمري لقتل أبي سفيان بن حرب

وفي السنة الرابعة للهجرة، ولما بلغ رسولَ الله ﷺ ما أصاب أهل الرجيع، بعث «عمرو بن أمية الضمريَّ» مع أحد الأنصار إلى مكة، وأمرهما بقتل «أبي سفيان بن حرب» وهاهو ذا «عمرو بن أمية» يحدثنا عما كان من أمره، قال:

بعثني رسول الله ﷺ بعد قتل «خبيب» وأصحابه وبعث معي رجلاً من الأنصار، فقال: (ائتيا أبا سفيان بن حرب، فاقتلاه). قال: فخرجت أنا وصاحبي، ومعي بعير لي، وليس مع صاحبي بعير، وبرجله علة، فكنت أحمله على بعيري، حتى جئنا بطن يَأْجَج، فعقلنا بعيرنا في فِناء شِعب، فأسندنا[1] فيه، فقلت لصاحبي: انطلق بنا إلى دار «أبي سفيان»، فإني محاول قتله، فانظر، فإن كان مجاولة أو خشيت شيئاً فالحق ببعيرك فاركبه، والحق بالمدينة فأت رسول الله ﷺ فأخبره الخبر، وخَلِّ عني؛ فإني رجل عالم بالبلد، جريءٌ عليه، نجيب الساق. فلما دخلنا مكة، ومعي مثل خافية النسر - يعني خنجره - قد أعددته، إن عانقني إنسان قتلته به، فقال لي صاحبي: هل لك أن نبدأ فنطوف بالبيت أُسْبُوعاً[2]، ونصلي ركعتين؟ فقلت: أنا أعلم بأهل مكة منك، إنهم إذا أظلموا رشُّوا أفنيتهم، ثم جلسوا بها، وأنا أعرف بها من الفرس الأبلق. قال: فلم يزل بي حتى أتينا البيت،

---

(١) أسندنا: صَعِدْنا.

(٢) أسبوعاً: أي سبعة أشواط.

فطفنا به أسبوعاً، وصلينا ركعتين، ثم خرجنا فمررنا بمجلس من مجالسهم، فعرفني رجل منهم، فصرخ بأعلى صوته: هذا «عمرو بن أمية»! قال: فتبادرتنا أهل مكة، وقالوا: تالله! ما جاء بعمرو خير! والذي يحلف به! ما جاءنا قط إلا لشر ـ وكان عمرو رجلاً فاتكاً متشيطناً في الجاهلية ـ قال: فقاموا في طلبي وطلب صاحبي، فقلت له: النجاء! هذا والله! الذي كنت أحذر، أما الرجل فليس إليه سبيل، فانْجُ بنفسك، فخرجنا نشتد حتى أصعدنا في الجبل، فدخلنا في غار، فبتنا فيه ليلتنا، وأعجزناهم، فرجعوا وقد استترت دونهم بأحجار حين دخلت الغار، وقلت لصاحبي: أمهلني حتى يسكن الطلب عنا، فإنهم والله! ليطلُبنَّا ليلتهم هذه ويومهم هذا حتى يمسوا.

قال: فوالله! إني لفيه إذ أقبل «عثمان بن مالك بن عبيد الله التيمي»، يتخيَّل[1] بفرس له، فلم يزل يدنوه يتخيَّل بفرسه حتى قام علينا بباب الغار، قال: فقلت لصاحبي: هذا والله ابن مالك. والله! لئن رآنا ليُعْلِمَنَّ بنا أهل مكة. قال: فخرجت إليه فوجأته بالخنجر تحت الثدي، فصاح صيحة أسمع أهل مكة، فأقبلوا إليه، ورجعت إلى مكاني، فدخلت فيه، وقلت لصاحبي: مكانك! قال: واتَّبع أهل مكة الصوت يشتدُّون، فوجدوه وبه رمق، فقالوا: ويلك! من ضربك؟ قال: عمرو بن أمية، ثم مات وما أدركوا ما يستطيع أن يخبرهم بمكاننا، فقالوا: والله! لقد علمنا أنه لم يأت لخير، وشغلهم صاحبهم عن طلبنا، فاحتملوه، ومكثنا في الغار يومين حتى سكن عنَّا الطلب، ثم خرجنا إلى «التنعيم»، فإذا خشبة «خُبَيْب»، فقال لي صاحبي: هل لك في «خُبَيْب» ننزله عن خشبته؟ فقلت: أين هو؟ قال: هو ذاك حيث ترى: فقلت: نعم، فأمهلني وتَنَحَّ عني، قال: وحوله حرس يحرسونه.

قال عمرو بن أمية: فقلت للأنصاري: إن خشيت شيئاً فخذ الطريق إلى جملك فاركبه والحق برسول الله ﷺ فأخبرْه الخبر، فاشتددت إلى

(١) يتخيَّل: يعجب بنفسه.

خشبته، فاحتللته واحتملته على ظهري؛ فوالله! ما مشيت إلا نحو أربعين ذراعاً حتى نَذِروا بي، فطرحته، فما أنسى وَجْبَتَه حين سقط، فاشتدوا في أثري، فأخذتُ طريق (الصفراء) فأعْيَوْا، فرجعوا، وانطلق صاحبي إلى بعيره فركبه، ثم أتى النبي ﷺ فأخبره أمرنا. وأقبلت أمشي، حتى إذا أشرفت على الغليل، غليل ضجنان، دخلت غاراً فيه، ومعي قوسي وأسهمي، فبينا أنا فيه إذ دخل عليَّ رجل من بني الدِّيل بن بكر، أعور طويل يسوق غنماً له، فقال: مَن الرجل؟ فقلت: رجل من بني بكر، قال: وأنا من بني بكر، ثم أحد بني الدِّيل، ثم اضطجع معي فيه، فرفع عقيرته يتغنَّى ويقول:

ولستُ بمسلم ما دمتُ حيًّا ولست أدين دين المسلمينا

فقلت: سوف تعلم! فلم يلبث الأعرابي أن نام وغَطَّ، فقمت إليه فقتلته أسوأ قِتلةٍ قتلها أحدٌ أحداً، قمت إليه فجعلت سية قوسي في عينه الصحيحة، ثم تحاملت عليها حتى أخرجتها من قفاه. قال: ثم أَخْرُج مثل السَّبعُ، وأخذت المَحَجَّة كأني نسر، وكان النَّجاء حتى أخرج على بلد قد وصفه، ثم على رَكُوبة، ثم على النَّقيع، فإذا رجلان من أهل مكة بعثتهما قريش يتجسان من أمر رسول الله ﷺ فعرفتهما فقلت: استأسرا، فقالا: أنحن نستأسر لك؟ فأرمي أحدهما بسهم فأقتله، ثم قلت للآخر: استأسر، فاستأسر، فأوثقته، فقدمت به على رسول الله ﷺ.

ولما قدمتُ المدينة مررت بمشيخةٍ من الأنصار فقالوا: هذا والله! عمرو بن أمية، فسمع الصبيان قولهم، فاشتدوا إلى رسول الله ﷺ يخبرونه، وقد شددت إبهام أسيري بوتر قوسي، فنظر النبي ﷺ إليه فضحك حتى بدت نواجذه، ثم سألني فأخبرته الخبر، فقال لي خيراً، ودعا لي بخير.